آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية مكتبية.

تصدر عن إدارة البحث العلمي والنشاط الثقافي بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث.

السنة الثانية - العدد الخامس - المحرم ١٤١٥ هـ، يونيو (حزيران) ١٩٩٤

المقتبس

غرة محرم سنة ١٣٢٤

صورة غلاف مجلة المقتبس السورية

تأثر قدامة بن جعفر بالنقد اليوناني

من خلال كتاب نقد الشعر

الدكتور . ناول عبد الهادي
الدار البيضاء - المملكة المغربية

لكي نتناول بالدراسة هذا الموضوع علينا أن نراعي في البحث الجوانب التالية:

الترجمة وبواعثها، أهم ما ترجم من الآثار اليونانية إلى عهد قدامة، نظرة موجزة إلى كتابي «الشعر» و«الخطابة» لأرسطو، ردود الفعل التي أحدثاها في الأوساط الأدبية العربية، المعركة التي قامت بين أنصار الثقافة اليونانية والعربية القديمة، نظرة موجزة إلى ثقافة قدامة، تعريف قدامة للشعر، رأيه في أن الشعر صناعة، نظرية الحدود الوسطى عنده، التناقض والجودة الفنية، عناصر الشعر البسيطة والمركبة، الغلو في الشعر عند قدامة.

الترجمة عن الفكر اليوناني وبواعثها

لا ينكر أحد تأثير الثقافة اليونانية في الثقافة العربية، وقد ابتدأ ذلك منذ أواخر الدولة الأموية وازداد نمواً وازدهاراً في عهد الدولة العباسية، وقد شمل هذا التأثير نواحي عدة في ميدان العلوم العقلية بمختلف أنواعها، وكذا في الفلسفة والمنطق، وبقدر ما كانت هذه الميادين

مزدهرة من حيث الترجمة والنقل، كانت في ميدان الأدب ضئيلة نسبياً لأسباب سنتعرف عليها بعد حين. فابن النديم يحدثنا عن أول نقل حدث في الإسلام كان بفضل خالد بن يزيد بن معاوية على يد «اصطفن» وبمرور الأيام تعددت الترجمة، وكثرت المواضيع والكتب التي نقلت من اللغة اليونانية إلى العربية عن طريق السريانية، وسيطول بنا الوقت لو أننا استعرضنا أسماء جميع المترجمين ومجموع ما ترجموه إلى اللغة العربية، ولكن سنكتفي بأهم ذلك مما له علاقة بموضوعنا بالذات.

كانت هناك بواعث كثيرة لهذه الترجمة من جملتها أن العهد الأموي - كما يقول أحمد أمين(١) - كان عهداً بدوياً، فلما جاء العصر العباسي رأى الناس أن حياة الحضارة لابد وأن تستند إلى العلم، وأن الحركة الدينية أيضاً قد نشطت فظهرت فرق المتكلمين ومن بينهم المعتزلة أنصار العقل. فاحتاج الناس إلى الجدل وإلى التسلح بالمنطق اليوناني للدفاع عن الإسلام ضد أصحاب الديانات الأخرى، ومالبث هذ المطلب أن أصبح غاية لذاته، كذلك صار أقوام البلدان المفتوحة يدخلون علومهم في التمدن الإسلامي، ومن جملة البواعث كذلك خاصة في العصر العباسي ميل بعض الخلفاء إلى العلوم الفلسفية.

ويزيد أحمد أمين قائلاً: «ونحن إذا استعرضنا ما حكي عن الترجمة ونشأتها أمكننا أن نستنتج ما يلي: «أنه قد عني في

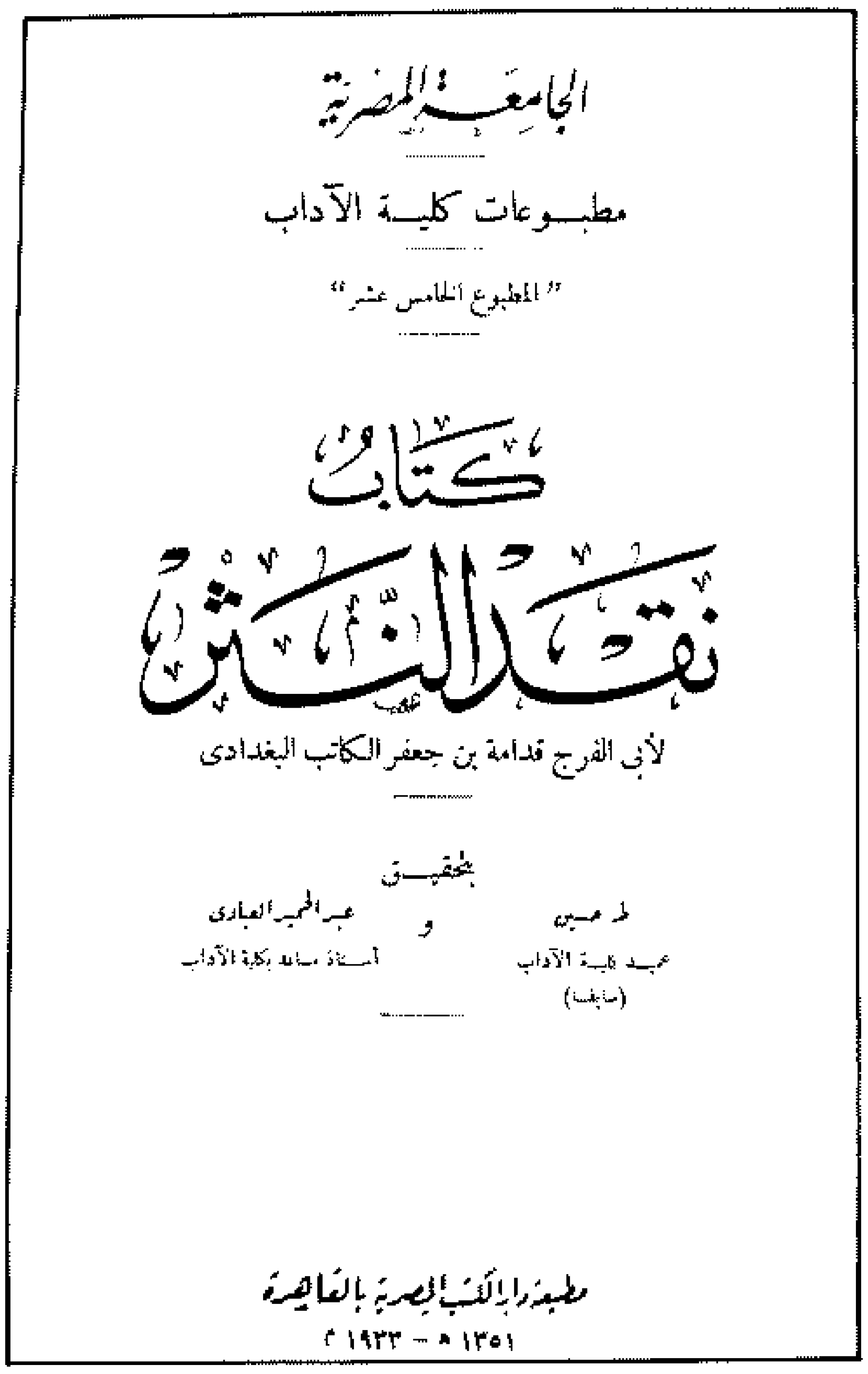
الجامعة المصرية

مطبوعات كلية الآداب

"المطبوع الخامس عشر"

كتاب

نقد النثر

لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي

بتحقيق

طه حسين و عبد الحميد العبادي

عميد كلية الآداب (سابقا) — أستاذ مساعد بكلية الآداب

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥١ هـ - ١٩٣٣ م

الدولة العباسية بالطب بسبب الحاجة إليه، وبعد أن كانت محاولات الترجمة في العهد الأموي فردية تحولت في العصر العباسي إلى عمل أمة، بعد أن اتصل المسلمون بالفلسفة اليونانية عن طريق الفرس، ثم النصارى، فنقلت العلوم والآداب اليونانية من السريانية إلى العربية بتشجيع من الخلفاء أنفسهم. وقد أثرت الثقافة اليونانية على الثقافة العربية من حيث الشكل والمضمون. فمن حيث الشكل ظهر تأثير المنطق اليوناني في العلوم العربية حتى قال عنه ابن سينا: إنه خادم العلوم»

أما من حيث الموضوع فقد كان للفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني أثر كبير في تعاليم المتكلمين وفي الفلسفة

الإسـلامية بوجه عـام. وأمـا البـلاغـة اليونانية فقد أثرت هي الأخرى في علم البـلاغـة العـربيـة كـمـا سنرى. وإذن فـالتـأثيـر اليوناني كان قـوياً في مـيدان الفلسـفـة والعلوم العقلية الأخرى باهت الظلال في الأدب لأن الفلسـفة والعلوم - كما يقـول أحـمد أمين - عـالمـيـة، بينمـا الأدب قـومي، زيادة على أن الفلسـفـة والعلوم نتاج العقل والعقل قدر مشترك بين الأفــراد والأمم. أمــا الأدب فلغـة العــــواطف. وليس للعـــواطف منطق يضبطها، والأدب ظل الحياة الاجتماعية، ولذا تذوق العــرب منطق أرسطو، ولم يتذوقوا الياذة هوميروس(٢).

وسـبب آخـر أن الأدب الـيـوناني أدب وثني، والذوق العربي إبان ترجمة العلوم لم يسـتـسـغ هـذا النوع من الأدب بدافع الإسـلام. ومع ذلك فقد كان لليونان أثر بالغ في اللغـة والأدب العـربيين من عدة وجـوه، فـانتـقلت كلمـات ومـصطلحـات يونانية الأصل إلى التعبير العربي كما ترجمت حكايات وقصص يونانية إلى اللغة العربية ابتداء بابن المقفع. أضف إلى هذا أن الحكم اليـونانيـة تسـربت إلى الثـقـافـة العـربيـة وكـتـبـهـا. وقـد كـان للنسـاطرة واليعاقبة أثر كبير في ترجمة عدد كبير من الكتب اليونانية التي نقلوها من هذه اللغة إلى السريانية ثم العربية.

إلا أن هذه الترجمة اتسمت بقلة الابتكار وعدم الوفاء للأمانة في النقل، حتى ليمكن أن يعزى إليـهـا الكثـيـر من الأخطاء التي وقع العرب فيها من الناحية العلمية.

وسوف أقتصر في حديثي هذا على ذكر

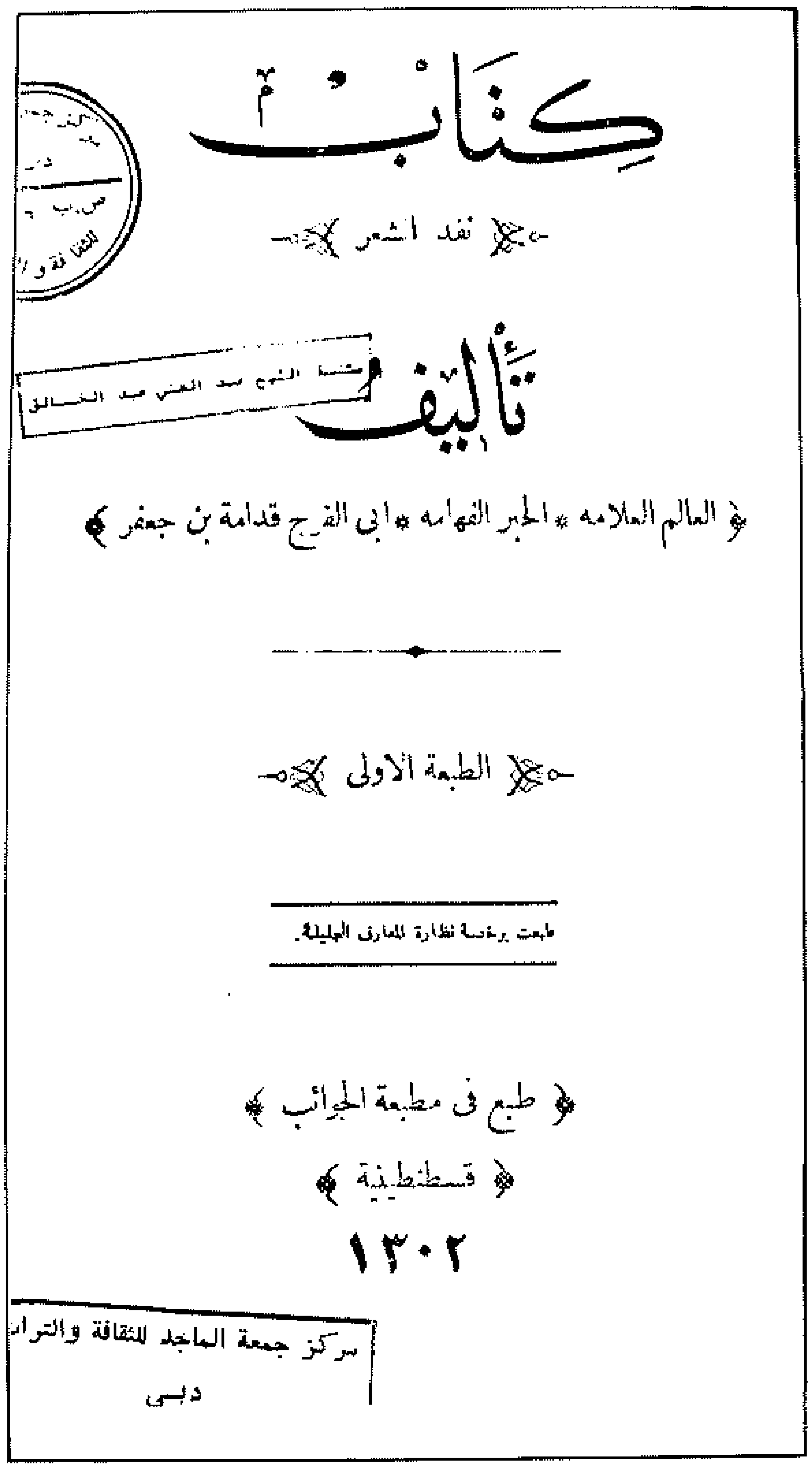
كِتَابُ
نقد الشعر
تأليف
العالم العلامه الحبر الفهامه ابى الفرج قدامة بن جعفر
الطبعة الاولى
طبعت برخصة نظارة المعارف الجليلة
طبع فى مطبعة الجوائب
قسطنطينية
١٣٠٢
مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث
دبي

ما ترجم من الكتب اليونانيـة إلى العربيـة في هذا العـصر الذي نتحدث عنه، وخاصـة الأدبيـة منهـا وبالضـبط عن كـتـابي: «الخطابة» و«فن الشعـر» اللذين كان لهمـا بعض الأثر في الدراسـات الأدبية والنقدية إذ ذاك.

أهم ما ترجم من الآثار الأدبية اليونـانية، وأثر ذلك في الأوساط الأدبية العربية

ترجم إلى اللغـة العـربيـة في العـصـر العـبـاسي أهم تـآليف أرسطو، ومن بينهـا

كتاب «فن الشعر» وهو واحد من كتبه في المنطق، وعرف عند الفلاسفة العرب باسمه اليوناني «البوطيقا» ويظهر أن أول من قام بتلخيصه إلى العربية هو الفيلسوف أبو يعقوب الكندي أواسط القرن الثالث الهجري، وترجمه أول مرة إلى العربية أبو بشر متى بن يونس القنائي (ت ٣٢٨ هـ). ثم تعاقب على ذلك بعده عدد من الفلاسفة فلخصوه وشرحوه، ومن أشهرهم الفارابي (ت ٣٣٩ هـ)، ويحيى بن عدي (ت ٣٦٤)، وابن سينا (ت ٤٣٧ هـ). وابن رشد المتوفى أواخر القرن الهجري السادس، ومن خلال حديث ابن النديم في الفهرست عن هذا الكتاب يتبيّن أنه كان معروفاً في بعض الأوساط الفلسفية العربية منذ أواسط القرن الثالث للهجرة.

«إن تمثل كتاب «الشعر» في البيئة العربية، سار على درجات ثلاث: أولاها الترجمة ويليها التلخيص والتفسير، ثم يليها التأثر واقتباس بعض الآراء. تم العمل الأول في بيئة المترجمين السريان، وتم العمل الثاني في بيئة الفلاسفة وتم العمل الثالث في بيئة البلاغيين والبلغاء»(٣) إلا أن تأثير هذا الكتاب في النقد العربي القديم يكاد يكون معدوماً، ويرجع ذلك إلى سببين: الأول يتصل بمضمون الكتاب. فإذا كان الشعر العربي غنائياً صرفاً فإن كتاب أرسطو هذا إنما هو نظرية مفصلة للمأساة في الشعر اليوناني، وفيه أحاديث عن الملهاة وشعر الملاحم، ولذلك لم يكن من طبيعة هذا الكتاب أن يلقى قبولاً في الأوساط الأدبية، أو أن يكون مفهوماً في هذه الأوساط في العصر الذي ترجم فيه. نعم ربما كان ذلك ممكناً لو رافقته ترجمة بعض الآثار الشعرية اليونانية وبخاصة بعض المآسي اليونانية وهذا مالم يحدث أبداً. أضف إلى ذلك أن المترجم نفسه لم يكن واعياً بموضوع الكتاب الذي ترجمه حق الوعي، ولذا جاءت هذه الترجمة مشوهة.

وهذا ما يجعلنا مدركين تمام الإدراك للنتائج السيئة في المفاهيم الخطيرة التي تنشأ عن مثل هذه الترجمة القاصرة، كما أن «متى» أبقى كثيراً من المصطلحات اليونانية بدون ترجمة إما لأنه لم يجد ما يقابلها بالعربية، أو لأنه لم يجد معناها في العربية، أو لأنه لم يفهمها، وباختصار يمكن أن نقول في هذا الأسلوب بأنه غريب عن أساليب العربية فعباراته عبارة مترجم ينقل أفكاراً لا يفهمها إلى لغة لا يتقنها، وهذا ما جعل بين الكتاب والفهم العربي إذ ذاك حاجزاً سميكاً من عدم الفهم له، خاصة في الأوساط الأدبية.

أما الأوساط الفلسفية فقد كانت متعودة على الأفكار والتعاريف الفلسفية.

وعند «جبريلي» أن تلخيص ابن سينا وابن رشد لهما قيمة في تاريخ الأدب العربي نفسه، فهما يبدآن وينهيان المحاولة الأولى والأخيرة لوصل العالم الثقافي الإسلامي بقواعد الشعر كما يرسمها أرسطو.

ولكن القارىء لهذه الشروح

والتلخيصات للفلاسفة المسلمين أنفسهم يخرج أيضاً مقتنعاً بأن الأوساط الفلسفية نفسها لم تفهم هذا الكتاب حق الفهم. ومع ذلك فقد كان لهذا الكتاب تأثير مباشر وغير مباشر في تاريخ الأدب والنقد العربيين.

فأما التأثير المباشر فيتمثل في أن بعض الأفكار التي وردت في الكتاب قد تسربت بطريقة أو بأخرى إلى كتب النقد التي ألفت في هذه المرحلة خاصة في كتاب «نقد الشعر» لقدامة كما سنرى. وأما التأثير غير المباشر فيتجلى في أنه كان حافزاً للنقاد العرب لكي يؤلفوا كتباً جديدة في نقد الشعر(٤)، حتى يبتعدوا عن النقد الجزئي التذوقي، وحتى يتجنبوا الفوضى والاستطراد في أحكامهم على الشعراء.

أما الكتاب الثاني فهو كتاب «الخطابة» لأرسطو، وقد ترجم قديماً كما يقول ابن النديم في الفهرست، وإن لم يذكر اسم مترجمه الأول، فلما جاء اسحاق ابن حنين أعاد ترجمته. وقد عرف الكتاب منذ أواسط القرن الثالث الهجري بل قبل ذلك، حتى لنجد أدباء القرن الثالث كانوا على علم بالكتاب مثل الجاحظ وابن قتيبة وغيرهما.

وكانت عبارة الترجمة القديمة رديئة، مما جعل شأن هذه الترجمة لا تحبب للأدباء مثل هذه الآثار اليونانية. وموضوع الكتاب هو البحث في أنواع الخطابة، وفي العواطف وانفعالات الخطيب والسامعين وكذا العبارة الخطابية ومثل هذه المواضيع لم تكن غريبة عن الفهم العربي.

ولئن كان ابن الأثير ينكر تأثير هذا الكتاب في الخطباء العرب، فإن تأثيره عند النقاد البلاغيين كان أمراً ثابتاً، فقد كانوا يلتقون معه في بعض النظرات الجزئية، ومثل هذه الأشياء تعد من التأثيرات المباشرة لهذا الكتاب.

وأما عن التأثير غير المباشر فنعني به رد الفعل الذي أحدثه كتاب «الخطابة» في الأوساط الأدبية، لما كان له من أثر في بعث الدراسات الأدبية شعرية كانت أم نثرية.

وسوف نرى أن معظم أفكار قدامة النقدية المتأثرة بالنقد اليوناني في كتابه «نقد الشعر» إنما جاءته من هذا الكتاب على نحو ما سندرس. كما أن معظم كتب النقد والبلاغة والبيان التي ظهرت في القرن الثالث الهجري يمكن أن نعدها أثراً غير مباشر للكتاب.

«ومهما يكن من شيء، فقد شعرت الحياة الأدبية للعرب شعوراً قوياً بهذه المحاولة من الفكر اليوناني أن يقنن للشعر العربي... وكانت هذه المحاولة مسايرة لاتجاه الحياة العلمية كلها، ومع أن طبيعة الشعر تنافي هذا الاتجاه التقنيني، فقد كانت له في العصر الذي نتحدث عنه هذه الميزة:

إنه كان مبشراً بتخليص البلاغة المعاصرة من سلطان الأقدمين وأصبحت المعاني تعرف بالفلسفة خيراً من أن تعرف بالشعر القديم، والأساليب وإن التمست نماذجها المختارة من الشعر المأثور، قد يهتدى إلى معرفة مواطن الحسن فيها بالنظر العقلي فيصبح الناقد

وفي يده معيار الجودة»(٥).

وتلقت الأوساط الأدبية هذا التأثير اليوناني بكثير من الاهتمام، وأعجبت به أيما إعجاب حتى اكتسب له أنصاراً ومُريدين، يذودون عنه ويفتخرون بانتسابهم إليه والنهل من منابعه، فلم يقتصدوا في تبجحهم، فالفارابي يحكم على الشعر العربي بأنه يدور حول «الفهم والكدية».

كما حكم على النقد العربي بأنه لم يشعر إلا بقليل من القوانين الشعرية بالنسبة إلى ما شعر به أرسطو.

وهذا متّى يقول في مناظرته لأبي سعيد السيرافي مفتخراً باليونان:«إنهم من بين الأمم أصحاب عناية بالحكمة والبحث عن ظاهر العالم وباطنه وبفضل عنايتهم ظهر ما ظهر، ونشأ ما نشأ من أنواع العلم... ولم نجد هذا لغيرهم»(٦) ومثل هذه الادعاءات نجدها كثيراً عند قدامة في إعجابه بحكماء اليونان وفلاسفتهم في «نقد الشعر».

وبالمقابل لهؤلاء ظهرت جماعة من الأدباء والنقاد الذين كانوا معجبين بالتراث العربي القديم، فلم يقفوا جامدين لهذا التحدي السافر.

فالآمدي يؤلف كتاباً في «تبيين غلط قدامة». وابن قتيبة يقول في كتابه «أدب الكاتب»: «لو سمع أرسطو ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم لعد نفسه من البكم». والقاضي الجرجاني يقول في صدر كتابه «الوساطة»: «إنا نقول – أيدك الله – إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء». وأبو سعيد السيرافي يرد على ادعاء متّى في مناظرته له قائلاً: «...وهذا تخليط وزرق وتهويل ورعد وبرق»(٧).

والجاحظ يصف أرسطو بالْعِي وينعته بأنه غير موصوف بالبيان.

ومن كل ما تقدم يمكننا نحن أن نستنتج أن «أرسطو لم يكن غريباً عن العرب بل يكاد يكون من بين القدماء الوحيد الذي أغرم به العرب، وقبلوا تفكيره وانتفعوا به عندما أكبوا على تدوين علومهم، انتفعوا به في المنطق الذي وضع المقاييس للتفكير والاستنتاج، وانتفعوا به في الأخلاق والسياسة، وأخيراً انتفعوا به في البلاغة والنقد، وطاوعتهم في الانتفاع بهما حساسية دقيقة في تذوق الكلام وفرز أساليبه، وهم في ذلك يتحدثون عنه كما يتحدثون عن واحد منهم يعرفونه حق المعرفة(٨).

نظرة موجزة إلى ثقافة قدامة

ومن هؤلاء الذين كانوا أشد اتصالاً به وبكتبه وبالثقافة اليونانية عامة قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، وقد كان من أوسع أهل زمانه علماً، وأغزرهم مادة، وأحسنهم معرفة. يقول عنه ابن النديم في الفهرست: «كان قدامة أحد البلغاء الفصحاء، والفلاسفة الفضلاء. وممن يشار إليه في علم المنطق»(٩). ويقول المطرزي: «وقيل هو أول من وضع الحساب» ويذكر ابن النديم لقدامة تفسيره بعض المقالة الأولى من السماع الطبيعي، وزاد صاحب كشف الظنون أن الكتاب اسمه «سماع الكيان».

ومن أشهر كتبه التي يذكرها له ياقوت كـتـاب الـسـيـاسـة، والـخـراج، وصناعـة الجدل؛ أما كتاب الخراج فقد تناهى فيه بوصف النثـر في المنزلة الثـالثـة من الكتاب، وهذه الثقافة جعلته يشارك في النقد، إذ المنزلة الثالثة من كتاب الخراج إنمـا كـانت صـدى لكتـاب أرسطو في الخطابة، وإن استكماله لمراحل المنطق الارسطاليسي - وكتاب الشعر مرحلة أخيرة فيه - هو الذي جعله يقوم بتأليف كتاب «نقد الشعر»(١٠). ويقول ياقوت: «إن قدامة قرأ صدراً صالحاً من المنطق وإنه لائح على ديباجة تصانيفه، مثل كتابه «نقد الشعـر» كما سنرى من حيث تقسيماته المنطقيـة وحدوده وتعريفاته وجدله وقياساته، بل إنه استشهد بأقوال بعض الفلاسفة اليونان وحكمائهم، ونعتهم بصفـات محمـودة في ميـدان العلم والفلسفة، مما يدل على مقدار ما يكن لهم من الإعجاب».

و يتساءل بدوي طبانة عما إذا كان قدامة قد اتصل بالثقافة اليونانية عن طريق اللغة اليونانية، أم أنها وصلت إليه مترجمة إلى إحدى اللغتين: السريانية أو العربية؟. ولكن بعد هذا لا يستبعد أن يكون اتصاله بها عن طريق اللغة اليونانية. والحقيقة أن قدامة قد اتصل بالثقافة اليونانية عن طريق اللغة السريانية وأنه لم يكن يحسن اللغة اليونانية أبداً مثله في ذلك مثل متّى وغيرهما من نصارى العراق الذين كانوا يشتغلون بالكتابة والدواوين.

وإذا كنا ندرس قدامة كناقد متأثر بالثقافة والنقد اليونانيين فيجب أن نحصر بحثنا في بعض التشابه والاختلاف، أو التقارب بينه من جهة، وبين ما نجد من ذلك في النقد اليوناني الذي نذهب جازمين أنه اطلع عليه مترجماً ضمن ما ترجم من أنواع الثقافات المختلفة في العصر العباسي إلى اللسان العربي.

وسنتوقف بصورة خاصة عند كتابي الشعر والخطابة لأرسطو لأنهما كانا المنبعين اللذين نهل منهما قدامة وعل، وتوقف عندهما كثيراً. وكان يعجبه بل يتمنى أن يأتي بشبه لهما في التأليف في النقد العربي.

تعريف قدامة للشعر:

إن المنهج الذي سلكه قدامة في تأليف كتابه «نقد الشعر» يبين لنا بجلاء مدى طغيان الروح العلمي وأسلوب التفكير المنهجي، واستبداد الفلسفة والمنطق بعقل مؤلفه. ويبدو أن عمله في هذا الكتاب كان أول محاولة جادة لتطبيق أصول المنطق اليوناني على الشعر العربي. وفي بداية كتاب «نقد الشعر» نرى أن تفكير قدامة قد اصطبغ بالصبغة المنطقية، ذلك أنه يضع الحدود والفواصل والأجناس والأنواع والذات والعرَض في تعابيره ومصطلحاته مما وعى عن المعلم الأول من ناحية قواعد النقد. ويقابلك بتفكيره المنطقي الصادم منذ الصفحة الأولى من كتابه فيبدو متأثراً بالمنطق الأرسطالسي متجاوزاً المفهوم اليوناني للشعر. فهو في تعريفه للشعر شديد الحرص على أن يكون هذا الحد مكوناً من جنس وفصل حتى يكون حائزاً له عما ليس بشعر.

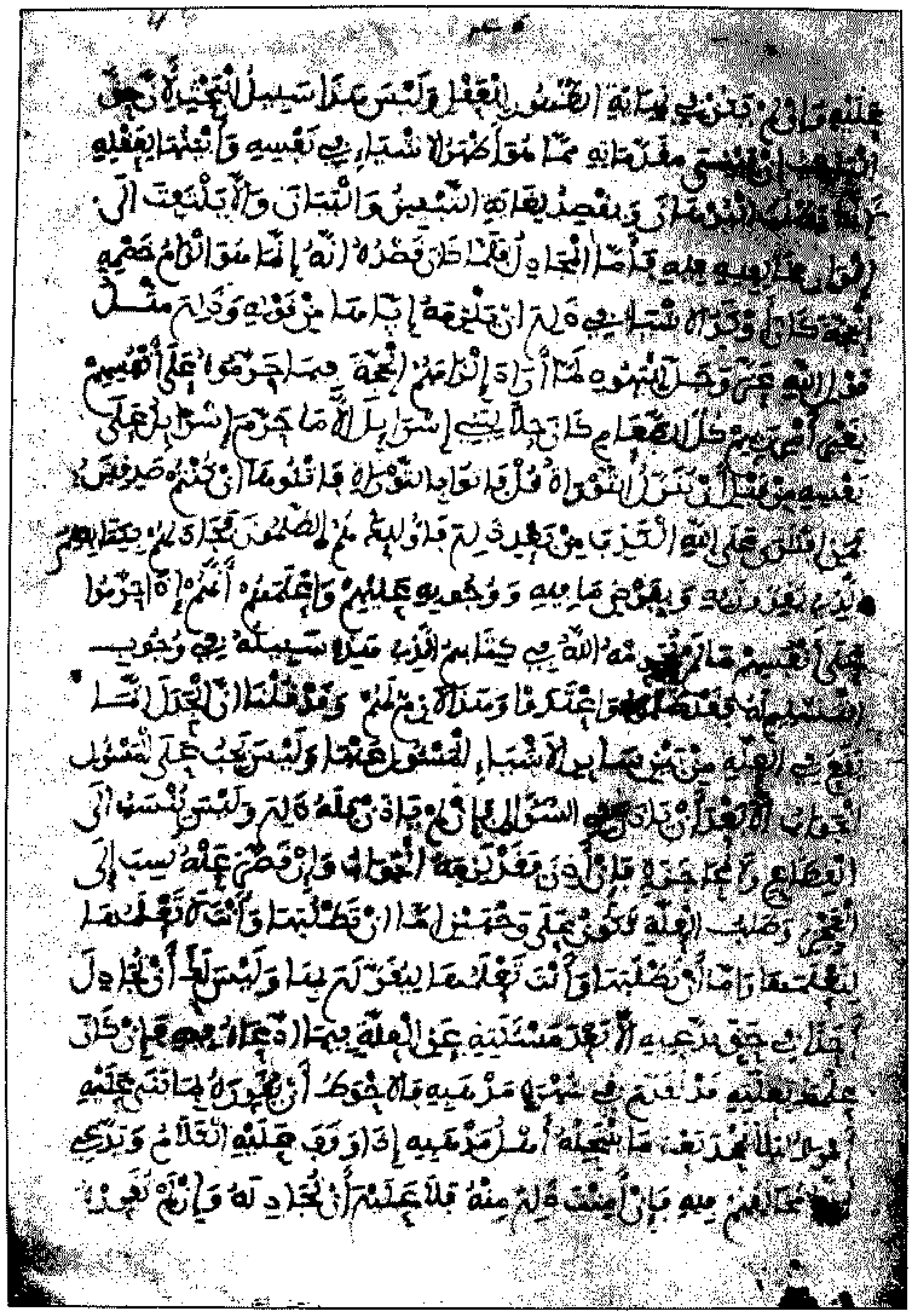

يقول: «إنه – أي الشعر – قول موزون مقفى يدل على معنى»(١١). إن قدامة لا يحتاط في تعريفه كما احتاط الفارابي من بعد بقوله: «إن للعرب من العناية بنهايات الأبيات التي في الشعر أكثر مما لكثير من الأمم التي عرفنا أشعارهم». ولا يحتاط شأن ابن سينا حين قال: «الشعر كلام مخيل مؤلف من أقوال موزونة متساوية، وعند العرب مقفاة»(١٢).

وقدامة متشبع بالتأثر اليوناني، وكتابه «نقد الشعر» مؤلف على طريقة الفلاسفة حين يبدأ بحد الشعر وبيان أقسامه، وفي فلسفة الحد عنده.

إن الشعر في تعريف قدامة «قول». وأول ما نلاحظه في هذا التعريف أنه قد خلا من صفة الشعر الذاتية التي ذكرها أرسطو وهي «المحاكاة». وهذا الفرق لابد أن يبعد قدامة عن روح كتاب الشعر وهو يلحق هذا التعريف بتحليل فلسفي للشعر إلى مادة وصورة.

والمادة كما نفهم من تحليل قدامة هي المعاني والأغراض، والصورة تكمن في طريقة النظم. والتأثر بعبارة المناطقة واضح في تعريفه للشعر. يقول شوقي ضيف في ذلك: «وواضح أنه يستمد مباشرة من منطق أرسطو وما ذكره عن الحدود والتقسيمات وأجزائها التي تتكون منها».

وقد تناول طه حسين هذا الحد في مقدمته لكتاب «نقد النثر» فارتأى أنه على الرغم مما فيه من تفكير فلسفي «فإنه لا يفيد أن قدامة قد فهم كتاب الشعر أو أنه على أقل تقدير ينقل عنه، ذلك بأن أرسطو

ينحي باللائمة في كتابه هذا على من يسمون الكلام المنظوم شعراً». ومن أجل ذلك فهو يفترض في هذا أحد أمرين: إما أن قدامة لم يطلع على كتاب الشعر لأنه لم يكن ترجم بعد إلى اللغة العربية، أو لأنه اطلع على الأصل اليوناني، أو على ترجمة سريانية تيسر له فهمه.

وعند شوقي ضيف أن أغلب الظن أنه قرأ الترجمة العربية لكتاب الشعر، وقرأ الملخص السابق لها عند الكندي. وفي الوقت الذي ينكر طه حسين على قدامة معرفته بكتاب الشعر، نراه يثبت له إحاطة تامة بكتاب الخطابة.

ويقول ضيف: «والحق أنه أحاط بهما معاً». وفي اعتقاده أنه تأثر في تعريفه - من الوجهة العامة - بتعريف أرسطو للمأساة، فقد وجده يضمن تعريفه لها العناصر التي تتكون منها في رأيه، وهي: اللفظ، والمعنى، والوزن، والقافية. وقبل أن يتحدث عن كل نوع من ذلك، قال: «إن الشعر صناعة»، وهو قول يستمده من مقدمات أرسطو في كتابه «فن الشعر». ورغم ذلك فإننا نجد هذه الفكرة نفسها عند ابن سلام الجمحي قبله: «وكما سمت اليونان الشعر صناعة والشاعر صانعاً، كذلك كان العرب يعدون الشعر من الصناعات قبل أن تنقل إليهم آثار الفكر اليوناني(١٣). ويقصد قدامة بالصناعة معنى التقنية في الإنتاج الأدبي.

ويتطرق قدامة إلى نظرية الحدود الوسطى، ولعل هذه النظرية من النظريات التي شغف بها أرسطو في كتابة «الخطابة»: «إنه إذا كان الإفراط والتفريط يفسدان الكمال، فإن الوسط الحق وحده يمكن أن يؤكد، هذا هو الفرض الذي من أجله يدمن الفنيون المحسنون النظر إلى أعمالهم(١٤)...».

وقدامة من خلال حديثه في هذا الفصل الأول من كتابه عن وضع الشعر موضع الصناعات والمهن، وعن مراتب الجودة والرداءة، يدخل في الحديث عن صفات الشعر.

عناصر الشعر البسيطة والمركبة عند قدامة:

فالشاعر عند قدامة ليس بالحكيم ولا بالمنطقي ولا بالخلقي. «وليس يوصف بأن يكون صادقاً....».

«ونحن إذا قابلنا كلام قدامة هذا بما في الفقرة الخامسة من ملاحظات أرسطو التي قدم بها الاعتراضات الاثني عشر، وجدناه ينهج نهج أرسطو يسايره فيما يقرره، وما دام أرسطو قد قبل حتى الاحتمالات القليلة الوقوع أو الكثيرة الوقوع، وما دام قد قبل حتى الاستحالات، فلم لا يقبل قدامة هذه التناقضات أيضاً؟ ولم لا يقبل أي معنى كائناً ما كان ولو كان متناقضاً، بل لماذا لا يقبله في وقته الحاضر ولا يلتفت إلى نسخه في وقت آخر ما دام «اوريبيدس» يصف الرجال على ما هم عليه في الوقت الحاضر لا على ما كانوا عليه، ولا على ما ينبغي أن يكونوا عليه؟»(١٥).

ويعقد قدامة باباً للحديث عن عناصر الشعر البسيطة والمركبة، ويرسم منهاجاً لكتابه «نقد الشعر» والخطة التي ينوي اتباعها فيما بعد.

ويبدو هنا قدامة منطقياً صرفاً في تحليله للشعر إلى عناصر أربعة هي البسيطة وإلى عناصر مركبة، فالأولى يمكن أن تستفاد من دراسة حد الشعر وهي:
اللفظ والوزن، والقافية، والمعنى،، ثم ائتلاف هذه العناصر مع بعضها، ويستنتج أن الشعر يتألف من ثمانية عناصر بسيطة مركبة على الناقد أن يهتم بكل منها لكي يميز جيد الشعر من رديئه بدراسته كل عنصر منها على حدة. وليعلم الصفات التي إذا ائتلفت مع غيرها صارت جيدة، وكي نبتعد عن نقد الذوق الخالي من مثل هذه القواعد.

ومن حقنا هنا الاعتراض على قدامة إذ من العبث أن نحاول في عصرنا أن نضع شيئاً نسميه معايير الشعر ونلزم الناس – في كل مكان – باتباعها. فهذا مغالاة في الموضوعية النقدية. ولأن هذه النظرة لا تأخذ بعين الاعتبار وسائل التطور. كما يحق لدارس قدامة أن ينعته بأنه بهذا التحديد والتقنين يكون قد وصل إلى القمة من الموضوعية في هذا الباب، في نظريته نحو الشعر. وعند شوقي ضيف: «إن نظرية الحدود الوسطى التي يذكرها قدامة إنما هي قبس من كتاب الخطابة لأرسطو، لا يراد بها إصابة الحق وإنما يراد بها الإقناع، ولذلك تستخدم في إثبات النقيضين»(١٦). ويسترسل قدامة فيقرر فكرتين أساسيتين عنده.

أولاهما : أن للشاعر أن يطرق كل باب من أبواب الشعر، وأن المعاني كلها صالحة، ينظم منها في شعره ما شاء، ويتكلم منها فيما أحب، شريطة أن يجيد إجادة فنية حتى يمكنه أن يشعر قارئه بصدق قوله، وإذ ذاك ليس لأحد أن يحظر عليه أي معنى من المعاني. وحجته في ذلك أن المعاني بالنسبة للشعر بمنزلة المادة الموضوعة والشعر فيها كالصورة، ومن هنا يجد قدامة منفذاً لربط الشعر بالأخلاق، وإذن فالشعر لا يحسن أو يقبح بسبب أخلاقي وإنما بجودة صناعته. وعند شكري محمد عياد: «إننا نلمح في هذه الفكرة أثراً مباشراً لكتاب الشعر»(١٧). والحقيقة أننا سنجد أفكاراً يتجلى فيها عنده تأثير الثقافة اليونانية بشكل أوضح حتى لتظهر سافرة.

والفكرة الثانية عند قدامة:أن الشاعر الذي يناقض نفسه في قصيدتين لا يعاب عنده في مناقضته نفسه كأن يمدح الشيء مدحاً حسناً في قصيدة، ثم يعود لذمه ذماً حسناً في قصيدة أخرى، بل إنَّ ذلك دليل على مهارة الشاعر وحذقه إذا هو أجاد المدح والذم معاً.

أما التناقض المعيب في نظره فمناقضة الشاعر نفسه في مناسبة واحدة وفي قصيدة واحدة، لأنه ليس هناك ما يبرر هذا التناقض، وهذا رد صريح منه على بعض من ينتقدون الشعر الذي يحتوي على فحش أو تناقض، وعنده أن ذلك ليس عيباً حقيقياً من عيوب الشعر. ويمثل لذلك بشعر امرىء القيس فينفي عنه التناقض.

وقد وصف بعض النقاد قدامة بأنه

يتعسف كثيراً حينما ينكر التناقض بين القولين في شعر امرىء القيس، ولكن قدامة المنطقي يريد أن يخضع الأمثلة - في بعض الأحيان - إلى ما يقرره من قواعد.

أما الأسلوب الذي استعمله في هذا الباب فمليء بالمصطلحات المنطقية من حد وجنس، وفصل، وحائز، وأسباب، ووسائط، ويقول قدامة: «وكما يوجد في كل محدود معاني حده، لأن الإنسان مثلاً يحد بأنه حي ناطق ميت»(١٨).

وهذا التعريف للإنسان عنده نجد له مثيلاً عند الرواقيين والفلاسفة اليونان وهو ما قال به الفيلسوف زينون قديماً، وعنده أن الحيوان نوع والإنسان جنس، والحد عند المناطقة أن يحيط بالشيء ويفصله عما ليس منه فصلاً تاماً، فالحد يتألف من فصول، أي عناصر، وكل عنصر له موضعه الذي لا يستغني عنه.

وهكذا ينتهي قدامة إلى أن الأثر الشعري يجب أن يدرس في نواح مفردة وأخرى مركبة، وكان من الطبيعي المنطقي أن يقيم كتابه على هذه الأسس ولذا جاءت أفكاره في بقية الكتاب تدعم ما رسم له منذ البداية.

ولعل هذا الحرص منه على وضع التقسيمات والحدود وإخضاع الشعر إلى القاعدة والقياس هو ما جلب لقدامة الكثير من الاعتراضات قديماً وحديثاً. يقول محمد زغلول سلام «إذا ما انتقلنا إلى كتاب نقد الشعر فإننا ننتقل إلى التقنين والتعريف والتصنيف، ونترك الحديث عن الشعر وجوانبه الفنية وتحسس جمال الشعر بذوق وشعور إلى ضرب جديد من التعرف إلى الشعر بطريقة العقل وقياسه بمقاييس المنطق والصواب والخطأ»(١٩).

ويتحدث شكري محمد عياد عن أقسام كتاب نقد الشعر فيقول: «وهذه محاولة واسعة المدى لتنظيم علم الشعر تنظيماً أشبه بالعلوم العقلية وتحويله من الدراسة الجزئية والموازنات الجزئية إلى أن يكون علماً معيارياً يوقف به على تمييز جيد الشعر من رديئه بوجه عام»(٢٠).

ثم يعقد فصلاً في نعوت المعاني الدال عليها الشعر.

وقبل أن يتناول هذا الموضوع بالدرس، يتحدث عن الغلو في الشعر فيرى الناس منقسمين إلى قسمين: قسم استحسن الغلو والمبالغة في الشعر، وهو الرأي الذي استحسنه قدامة نفسه، وقال عنه: «إن الغلو عندي أحسن المذهبين» وقال عنه: «إنه قول العالمين بالشعر» وإنه قول الفلاسفة اليونانيين في الشعر.

وهذا تصريح واضح منه في اطلاعه على الثقافة اليونانية وفي أخذه عن فلاسفة اليونانيين، وهو يعني بقوله هذا «أرسطو» الذي كان يرى «أن الشاعر لما كان محاكياً - شأنه شأن الرسام وكل فنان يصنع الصور - فينبغي عليه بالضرورة أن يتخذ دائماً إحدى طرق المحاكاة الثلاث. فهو يصور الأشياء إما كما كانت - نظرية المثل - وإما كما يصفها الناس وتبدو عليه، أو كما يجب أن تكون، وهو إنما يصدرها بالقول... فإن وجد في الشعر أمور مستحيلة فهذا خطأ يمكن اغتفاره إذا بلغنا الغاية الحقيقية من

الفن، وإذا كان هذا الجزء أو ذاك من القصيدة قد أصبح عن هذا الطريق أبدع وأروع. ومع ذلك إذا كان تحصيل الغاية على نحو أفضل أو مساوياً مع احترام الحقيقة، فإن هذا الخطأ لا يمكن اغتفاره، إذ ينبغي ألا يكون هناك أدنى خطأ ما استطعنا إلى ذلك سبيلا»(٢١). وواضح من هذا الكلام أن أرسطو يفضل الحقيقة على كل شيء إذا تمكنت من أن تحقق لنا الغاية من الفن، وإنما نتقبل المستحيل وما لا وجود له إذا أدى هذه الغاية التي نتطلع إليها، وكان أبلغ في التعبير عن المعنى المراد من التعبير بالحقيقة، فإذا تساويا أو كانت الحقيقة أقدر على التصوير، لم يكن لنا أن نعدل بالحقيقة أو أن نتجاوزها إلى المعاني المستحيلة التي لا وقوع لها. وإذا قام النقد على دعوى عدم الانطباق على الواقع والحقيقة فربما يمكن الرد على ذلك بأن نقول: إن الشاعر إنما صور الأشياء كما يجب أن تكون، فإن سوفوكليس كان يقول: إنه إنما يصور الناس كما يجب أن يكونوا، بينمايصورهم أوريبيدس كما هم في الواقع. وبالجملة فإن الأمر المستحيل ينبغي أن يبرر على اعتبار الشعر أو ما هو أفضل أو الرأي الشائع، أما عن الشعر فإن المستحيل المقنع أفضل من الممكن الذي لا يقنع، أجل قد يكون من المستحيل أن يوجد ناس مثل الذين يصورهم زيوكسيس ولكن إنما يرسمهم خيراً مما هم، لأن من يتخذ قدوة يجب أن يكون أفضل ممن هو بالفعل، والرأي الشائع ينبغي أن يبرر الأمور غير المعقولة، وأحياناً تبين أنه غير معقول.

إذن من المحتمل أن الأشياء تقع أحياناً بخلاف ما هو محتمل. إن أرسطو لا يريد الفن مجرد التقليد مادام يستحسن سوفوكليس الذي يصف الناس على ما ينبغي أن يكونوا عليه في الواقع. ولعل أصل هذه الفكرة عند اليونانيين دينية محضة «(٢٢) ومن جهة أخرى فربما كان قدامة متأثراً بتلك المبالغات التي عاشها في بيئة الأدب والشعر في عصره، وأنه اصطنع هذا الرأي مجاملة لهم (الناس) وسواء أكان متأثراً في ذلك بشعر التراث أم بآراء الفلاسفة اليونانيين الذين أعجب بهم قدامة وبما لديهم من أساليب النقد والتفكير المنطقي الصرف؛ فإن الإنسان كما يقال ابن بيئته. فقد كان قدامة يحيا حياة الناس الذين عاشوا في العصر العباسي، عصر الضخامة والمبالغة في كل شيء. وكان من الطبيعي أن يساير الشعر والنقد هذه الحياة وأن يعجب الأدباء بهذه الألوان من المبالغات؛ من ذلك مثلاً أن أبا تمام وقف يمدح أحمد بن المعتصم فقال:

أبليتَ هذا المجدَ أبعدَ غايةٍ
فيه وأكرمَ شيمةٍ ونحاسِ

إقدام عمروٍ في سماحة حاتمٍ
في حلم أحنفَ في ذكاءِ إياسِ

قال هذا وظن أنه قال شيئاً، ولكن أبا يعقوب يوسف الكندي الذي درس هو الآخر كتب أرسطو وأفلاطون سرعان ما لاحظ البون الشاسع بين قول أبي تمام ومقتضيات العصر، فقال معترضاً: وهل

زدت على أن شـبـهـت الأمـيـر بـأجـلاف العرب.

وعند أرسطو أن جـهـل الشـاعـر بأن انثى الغـزال ليس لـهـا قـرون لا يحـسـب جهلاً بالفنية الشعرية وإنما يحسب جهلاً بعلم الحيوان مثلاً، وجهل الشاعر بهذه الناحـيـة أخف من وصف الغـزال وصـفـاً يخالف حقيقته، فإذا ما قابلنا قول أرسطو هذا بما عند قدامة نجد مثيلاً له عنده في نقده خاصة في بيت مهلهل بن ربيعة:

فلولا الريح أسمع اهل حجر
صليل البيض تقرع بالذكور

فـوقف أمـام هذا البـيت لـخطأ فـيـه، فـمـهلهل كـان في نـاحـية الرقـة وبين هذه الناحـية وبين حـجر مـسـافـة بعيـدة جداً. فـالنقاد يقولون : إنه جهل بمواقع البلدان. وقـد رأيت أن أرسطو يغـتـفـر مـثل هذا الـجهل».

وبدل أن يقـرر قدامة مـا قـرره أرسطو من أن مـثل هذا الخطأ لا يقدح في الفنية نراه يقـر الـبـيت وينسـبـه إلى الغلو الذي تعلمه أيضاً من أرسطو(٢٣). فـمهلهل يغالي في وقع صليل البيض وقرع السيوف التي يسمع صليلها من بعيد، ويعترض قدامة على من يعيب قول النمر بن تولب:

ابقى الحوادث والأيام من نمر
أسباد سـيـف قديم إثره بـاد

تظل تحفر عنه إن ضربت به
بعد الذراعين والساقين والهادي

وكذا في بيت أبي نواس:

وأخفت أهل الشرك حتى انه
لتخافك النطف التي لم تخلق

ثم يرمـيـهم بـالتناقض والاضطراب في تفكيـرهـم عندمـا يرى هؤلاء بأعـيـانـهم يستـحسنون ما يرون من طعن النابغة على حسان بن ثابت في قوله:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
واسيافنا يقطرن من نجدة دما

وقدامة هنا لا يرى الطعن على حسان ويخـالـف في ذلك رأي النابغـة الناقـد لشـعره، فـالنقض في كلمـة «البـيض» بدل «الغـر» وقـدامـة يقـول: «أراد بقـوله الغـر المشهـورات، كما يقال: يوم أغر ويد غراء، وليس يـراد الـبـيـاض في شـيء، بل يراد الشهرة والنباهة(٢٤).

أليس هذا تقـريراً لـمـا قـال به أرسطو قـبله عندمـا قـال:يجب أن نراعي في النقد مـا يريد الشـاعـر أن يقرره، ومـا تجري به الفكرة الشـائعة(٢٥) وإذن فـالفكرة الشـائعة عند الناس قولهم: «يوم أغر ويد غراء» في حين لا يقولون: «يوم أبيض ولا يد بيضاء» وبالمـثل قـولهـم: «يقطرن من نجـدة دمـاً»، ولا يقـولون: «يجرين من نجـدة دمـا» ولعله لو قـال: «يجـرين دمـا، لـعدل عن المـألوف المعـروف من وصف الشـجـاع النجـد إلى مـا لم تـجـر عـادة الـعـرب بـه». وأيضـاً فـحسان لم يرد الكثرة وإنما ذهب إلى ما يلفظ به الـنـاس ويـعـتـادونه من وصـف الشـجـاع البـاسل والبطل الفـاتك بأن

يقولوا: «سيفه يقطر دماً».

وإذن فقدامة هنا يتبع العرف والعادة عند الناس من الناحية اللغوية، وعلى أساس هذه الفكرة يكون النقد، وهذا يقابل ما قرره أرسطو وتابعه فيه قدامة.

و كان قدامة في هذه المرة مطمئن البال، لأنه بتقريره لهذه الفكرة يكون قد جمع ووفق بين نظرة أستاذه والذوق العربي السائد.

وعند أرسطو أن الفضيلة وسط بين طرفين مذمومين، وعند قدامة أن للشاعر الحرية في أن يصف قوماً بالإفراط في هذه الفضائل لأن ذلك من باب الغلو في الشعر الذي لا يراد منه إلا المبالغة والتمثيل لا حقيقة الشيء ولذا يقول: «إن الغلو عندي أجود المذهبين، وكذا يرى فلاسفة اليونان في الشعر على مذهب لغتهم»(٢٦).

وفي هذا يقف قدامة مناقضاً لمبدأ الصدق الذي دافع عند ابن طباطبا والآمدي، معتمداً في رأيه على نقاد قدماء من العرب وعلى فلاسفة اليونان وإن كنا لا ندري يقيناً إلى أي الفلاسفة يشير»(٢٧).

الهوامش :

١ – ضحى الإسلام ١/ ٢٦٥.
٢ – المرجع السابق ٢٨٠ – ٢٨١.
٣ – ارسطو طاليس في الشعر ٢٨٧.
٤ – عن محاضرات أستاذنا الدكتور أمجد الطرابلسي ٧٣ – ٧٤.
٥ – ارسطو طاليس في الشعر ٢٣٤.
٦ – بلاغة ارسطو ٣٥٤.
٧ – نفسه ٣٥٦.
٨ – المصدر السابق ٤.
٩ – الفهرست ١٩٤.
١٠ – تاريخ النقد الأدبي عند العرب ١٩٠.
١١ – نقد الشعر ١٥.
١٢ – تاريخ النقد العربي لإحسان عباس ١٩١.
١٣ – البلاغة تطور وتاريخ ٨١ – ٨٢.
١٤ – الخطابة ١/ ١٣٧.
١٥ – البلاغة تطور وتاريخ ٢١٠.
١٦ – المرجع السابق ٨٣.
١٧ – أرسطو طاليس في الشعر ٢٢٦.
١٨ – نقد الشعر ١٠٣.
١٩ – تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري ١٨٠.
٢٠ – ارسطو طاليس في الشعر ٢٢٦.
٢١ – فن الشعر ترجمة عبدالرحمن بدوي ٧٢.
٢٢ – ارسطو طاليس في الشعر ٢٤١.
٢٣ – بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ٢١٠.
٢٤ – نقد الشعر ٦٤.
٢٥ – بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ٢١١.
٢٦ – نقد الشعر ٦٥.
٢٧ – تاريخ النقد الأدبي عند العرب ١٩١.